في العلاقة بين علم الاجتماع والتاريخ

د. عاطف احمد *

اولا : تمهيد :

لم يكن الاهتمام بدراسة العلاقة بين علم الاجتماع والتاريخ حديث النشأة ، بل هو اهتمام قديم نجد تلميحات له لدى مؤسسي علم الاجتماع الاوائل كابن خلدون ومن جاء بعده من رواد علم الاجتماع الفرنسي كدور كايم مثلا . الا أن ظهور الاتجاه الماركسي بما حمله من أفكار أثار ضرورة الاهتمام بالمعطيات التاريخية عند تناول قضايا المجتمع ، الامر الذي اعطى للبعد التاريخي معنى آخر ما زال يثير حتى يومنا هذا الكثير من اختلاف وجهات النظر .

ولم تقتصر العناية بدراسة العلاقة بين علم الاجتماع والتاريخ على علماء الاجتماع وحدهم ، بل هناك من المؤرخين من أولى هذه القضية اهتماما خاصا .

والملاحظ انه على الرغم من تأكيد كثير من علماء الاجتماع على ضرورة الاستعانة بالمعطيات التاريخية والاعتماد على المنهج التاريخي في تناول قضايا المجتمع وهو الامر الذي نلاحظه في اسهامات علماء الاجتماع الانجليز وعلى وجه الخصوص في أعمال بيلاه (Bellah) وبندكس (Bendix) وليبست (Lipset) وميرتون (Merton) ومور (Moore) ، ونيبست (Nesbit) ، سمسلر (Smesler) وسوانسون (Swansen) ، وكذلك في اعمال تيلي (Tilly) الا أن غالبية البحوث والدراسات السوسيولوجية لا سيما في الولايات المتحدة الامريكية لم تتخذ طريقها بعد وبشكل جاد نحو استخدام المنهج التاريخي ، الامر الذي اثار عدة تساؤلات لعل من اهمها الى أي حد نستطيع ان نعتبر كلا من علم الاجتماع والتاريخ نسقين عقليين مختلفين ؟ واذا كانا كذلك فاين يكمن هذا الاختلاف ؟ أم اننا نستطيع

---

* مدرس علم الاجتماع بكلية البنات في جامعة الازهر .

ان نعتبرهما نسقا معرفيا واحدا ، وان كلا النظامين يعملان في معية واحدة ؟

ثانيا : تمايزات اساسية بين علم الاجتماع والتاريخ :

لعل الراصد لحركة الاهتمام بدراسة العلاقة بين علم الاجتماع والتاريخ يلاحظ أن هناك وجهتي نظر ، الاولى تميز بين منهج دراسة الحالات الفردية (Idiographic) من جانب وذلك المنهج الذي ينزع نحو دراسة النواميس العامة (Nomothetic) من جانب آخر .

وهذه الرؤية ترى في علم الاجتماع والتاريخ نسقين معرفيين متمايزين ، كل له منهاجه وطرائق بحثه المتميزة .

أما وجهة النظر الاخرى فهي أكثر حداثة من الرؤية التقليدية السابقة ، حيث ترى في علم الاجتماع والتاريخ انشطة عقلية غير منفصلة .

واذا كانت الرؤية التقليدية قد أرادت ان تؤكد على مجموعة من التمايزات بين علم الاجتماع والتاريخ كنسقين معرفيين مختلفين ، الا ان هذه التمايزات قد نبعت أساسا من المشتغلين بهذين العلمين . فعالم الاجتماع مثلا رغم اتجاهه نحو استخدام بعض السجلات التاريخية الا انه ما زال يعمل في ظل بعض المخاوف . فهو من جهة ينبغي أن يكون على درجة عالية من التدريب في تناول المعطيات التاريخية ، فضلا عن عدم معرفته الدقيقة بالتاريخ الذي يعنى بدراسته ، وهو من جانب آخر ما زال موجها توجيها عقليا يحمل مجموعة من التمايزات تؤكد على فصل هوية علم الاجتماع عن سائر العلوم الاخرى كالتاريخ مثلا .

لذلك نجد ان غالبية علماء الاجتماع والمؤرخين ذوي النزعة التقليدية لا يرضون كثيرا عما يثيره اصحاب النزعة الحديثة من عدم الفصل بين علم الاجتماع والتاريخ ، حيث يرون ان لكل منهما نسقه الفكري المتميز ومنهجه الخاص في محاولة تحليل الواقع الاجتماعي بشكل امبريقي .

وتتحلى هذه الاختلافات ايضا في موضوع اهتمام كل علم ، وفي الاطار الابستيولوجي لكل منهما ، وفي الدور الذي يضطلع به كل نسق علمي وفقا لاطاره النظري والمفهومات المرتبطة به .

ولم يقتصر الاختلاف بين العلمين فيما يتصور اصحاب النزعة التقليدية على هذه الامور فحسب ، بل تجاوز ذلك الى فيما نسميه بمنطق « التفسير » وفي طرق الحصول على معطيات الدراسة وفي طبيعة المحكات التي تستخدم عادة في تقويم هذه المعطيات .

ولم تكن النزعة المحافظة التي تميز بين علم الاجتماع والتاريخ وليدة اليوم بل كانت لها ارهاصات ارتبطت بظهور علم الاجتماع في انجلترا فيمقدمتها انعدام الثقة في علم الاجتماع في حد ذاته من قبل بعض المؤرخين الانجليز لا سيما هؤلاء المنتمون الى الجامعات القديمة الامر الذي ادى الى خلق مشكلات تتعلق بالحوار العقلي حول احتمال وجود ما يسمى بالتاريخ السسيولوجي (Sociological History) وعلم الاجتماع التاريخي (Historical Sociology)

ولم تتغير هذه النظرة كثيرا من قبل المؤرخين تجاه علم الاجتماع رغم تغير الموقف في السنوات العشر الاخيرة ، فما زال كثير من المؤرخين ينظرون الى العلوم الاجتماعية باعتبارها تهديدا اكثر من كونها تاثيرا مثمرا عظيم القيمة ، فهم يرون ان للمؤرخين اهتماما متميزا ينصب على « الماضي » وان اهتمام علماء الاجتماع عادة ينصب على « الحاضر » . وهذا التمييز يعني ببساطة ان دارسي كل علم (علم الاجتماع والتاريخ) قد تعودوا عمليا ان يلبسوا انفسهم اثوابا محلية متمايزة .

اما من الناحية المنهجية فان هذا التمييز يتسم بالتعقيد الشديد وبوجه عام نرى المؤرخين يعتمدون على مسارات السنين لكي يخبروا علماء الاجتماع بما هي اللحظات التاريخية التي كانت ذات تاثير على مجرى الحوادث في المستقبل . كذلك فان المؤرخين يستطيعون ان يحددوا ليس فقط المعطيات التي يستطيع علماء الاجتماع استخدامها ، بل ايضا تحديد نصيب الماضي من اهتمامات هؤلاء العلماء ، الا ان قدرة المؤرخين على ان يضعوا معنى من تلك المعطيات التي سببتها تاثيرات الزمن ما زالت محل شك ، في حين لا يجد علماء الاجتماع هذه الصعوبة في ايجاد معنى لهذه المعطيات التي يستطيعون استخدامها كمقياس وسيط لعملية الضبط .

ولقد حال الخوف والازدراء والتهيب لدى بعض المؤرخين تجاه علم الاجتماع كنشاط عقلي دون تغيير هذه النظرة التقليدية ، فان عالم الاجتماع كثيرا ما يبدو غريبا مثيرا للضجر بالنسبة للمؤرخ نظرا لما يقدمه احيانا من نماذج هندسية ورسومات وجداول ، وتكنيكات قد تبدو غريبة عليه ، وهو الامر الذي اثار دهشة المؤرخ الامريكي الشهير كارل بريدين بوف (Carl Bridenbaugh) حين سأله عالم اجتماع « ما هو منهجك في الحصول على العينة » ؟

ومن بين دعاوي التمايز ايضا أن لعلماء الاجتماع اهتماما خاصا بالخصائص العامة للخبرة الاجتماعية وبانماط الانشطة اليومية تلك التي تتجلى بشكل واضح من خلال النظام الاجتماعي ، بينما ينحصر اهتمام المؤرخ في تلك اللحظات ذات الطبيعة الخاصة في الزمن والتي تؤثر بشكل أو بآخر في طابع

العصر وتلعب دورا في تحديد مسار المستقبل .

فمهمة علم الاجتماع على المدى الطويل هي البحث عن التتابعات الانتظامية في السلوك البشري (Regularities) وعن تلك النماذج السلوكية التي تتسم بالاتفاق ، وذلك بأمل التوصل الى اكتشاف القوانين العامة ، في حين يهدف المؤرخ اولا واخيرا الى البحث عما هو فريد ومميز في سلوك البشر آملا التوصل بشكل دقيق وبقدر الامكان ـــ الى استقراء حوادث الماضي .

فعلم الاجتماع اذن فيما يرى اصحاب هذه النزعة يبحث دائما عن تلك النواميس العامة (Nomothetic) ، اما التاريخ فهو ينزع دائما الى البحث عن تلك الحالات الفردية الفريدة (Idiographic) من السلوك الانساني .

ولا شك أن التمييز بين هذين النسقين المعرفيين وان كان قد تبدى بشكل جلي على المستوى التجريدي ، الا انه يبدو على المستوى الواقعي أن هناك صعوبة تواجه هذا التمييز عند تناول حالة بعينها من جانب كل من علم الاجتماع والتاريخ ، ويؤدي هذا الامر احيانا الى التأكيد على انه من الصعوبة أن نضع خطا منطقيا فاصلا بين العلمين نظرا للتأثير المتبادل بينهما ودليلنا على ذلك ـــ مثلا ـــ تحول عدد من دارسي التاريخ والمؤرخين الى علماء ومتخصصين في علم الاجتماع .

ومع التسليم بوجود تمايزات بين علم الاجتماع والتاريخ ، ومع التسليم ايضا بواقعية التأثير بينهما ، يبقى سؤال هام : لماذا اذن يختلف عادة علماء الاجتماع والمؤرخون في طبيعة عملهم ، ولماذا ينفرد كل منهم بأسلوب متميز ومضمون مختلف ، ثم ما هي العوائق التي تحول دون التقارب بينهما ؟

وقد يعزى السبب في ذلك الى أن كلا منهما ينزع الى تناول ملامح مختلفة من الصورة العامة للمجتمع كذلك تناولهم المختلف لتلك الانشطة التي تحدث في اطار هذه الصورة العامة . فعالم الاجتماع عادة ما يكون شغوفا بملاحظة البناء الخاص بالصورة العامة للمجتمع اكثر من اهتمامه بالطابع الخاص بالافراد والاشخاص ذوي النزعات القيادية ، وهو بوجه عام يبدي اهتماما خاصا ببعض النماذج السلوكية المحددة في الوقائع أو الحوادث التي يعنى بدراستها ، اكثر من اهتمامه باللحظات الخاصة بالكوارث والتحولات المفاجئة ، والتنازع بين الخصوم وسخريات القدر ، وكل المآسي البشرية ، وهي الامور التي يهتم بها عادة المؤرخون .

ولم تقتصر عوائق التقارب بين علم الاجتماع والتاريخ فقط على طبيعة اهتمام كل علم والمنهج الذي يتبناه كل منهما ولا سيما فيما يتعلق بقضية « التفسير » التي يرتكز فيها المؤرخون على الدوافع (Motives) التي

ساهمت في صنع هذه الوقائع او تلك ، ويهتم فيها علماء الاجتماع بعمليات اقتفاء الاثر والبحث عن العلاقة بين هذه الوقائع او الحوادث وغيرها من النظم والقوى الاخرى المحيطة بالبيئة ، بل ان هذه العوائق قد تنبع من داخل العلم نفسه فمثلا نلاحظ انه ما زالت هناك صعوبات ومشكلات تتعلق بنوعية الارضية التي ينبغي ان يحتلها علم الاجتماع في البناء العام للحياة الاكاديمية ، فعندما يسأل عالم الاجتماع مثلا أن يضيف لنا طبيعة مهنته هذه (اي علم الاجتماع) ، يذهب الى أن علم الاجتماع ما هو الا منظور (Perspective) اكثر منه موضوع محدد للبحث (Subject) وهو اتجاه (Approach) اكثر منه اكتشاف لوقائع معروفة (Inventory of Known facts)

ولكن ما الذي يعنيه عالم الاجتماع بهذا ؟ ان هذا يعني ـــ ببساطة ـــ ان علماء الاجتماع ما زالوا لا يملكون ارضية طبيعية في عالم الظواهر الانسانية، غاية ما في الامر انهم يستطيعون أن يتميزوا عن هؤلاء الدارسين في المجالات الاخرى من خلال الطرق التي يسلكونها للحصول على معطيات الدراسة ، كذلك فان تلك المعاني والمفاهيم التي يتبنونها في اعمالهم عادة ما تميزهم عن سائر المهتمين بدراسة الظواهر الانسانية ، هذا فضلا عما يتسمون به من أخيلة خصبة ومناهج تعمل كثيرا على اتساق افكارهم وتقرب بين عقولهم .

لقد اصبح من الضروري اذن أن نأخذ بعين الاعتبار تلك الحدود الفاصلة بين علم الاجتماع والتاريخ ، ولكن في الان نفسه لا ينبغي ان نتجاهل ذلك التقارب القائم بينهما ، فلقد تحرك المؤرخون بحثا عن ادوات جديدة لكي تساعدهم في التعامل مع تلك المعطيات التي تتزايد ، ولقد نزع هؤلاء المؤرخون ايضا الى البحث عن صياغات تصورية جديدة (Conceptualizations) فنرى قدرة هؤلاء المؤرخين على كيفية التعامل مع معطيات الماضي من خلال اصطلاحات اكثر اجتماعية .

ولم يقف علماء الاجتماع موقفا سلبيا تجاه المعطيات التاريخية ، فلقد تحركوا بشكل لافت في الاونة الاخيرة للتعامل مع تلك المعطيات ، وهو الامر الذي فرضته طبيعة التغير السريع في العالم المعاصر مما حفز علماء الاجتماع على النظر الى الحاضر باعتباره تاريخا ، فضلا عن بحثهم المستمر في سجلات الماضي عن تلك العمليات التي تدخل في نطاق اهتمامهم كالتصنيع والتحضر والثورة .

ثالثا : محاولات التوفيق بين علم الاجتماع والتاريخ :

لعل محاولة اقتراب عالم الاجتماع من المنهج التاريخي وارتياده تلك الافاق الواسعة للتاريخ قد عمقت قدرته على الكشف عن طبيعة العلاقة التي

تحكم الوقائع الاجتماعية المختلفة ، وهو الامر الذي خلق لديه حسا خاصا بضرورة الاهتمام بالطبيعة الزمنية للقوى الاجتماعية .

ولقد كان السير رايت ميلز (C. Wright Mills) محقا حين اشار الى ان عالم الاجتماع هو في الحقيقة مؤرخ معاصر سواء أكان يعنى مثلا بتحليل احدى العمليات الانتخابية او يقوم بملاحظة انشطة مذهب ديني معين او استخلاص بعض التجارب من تلك الجماعات المعملية (كالجماعات البدائية والبسيطة) فعندئذ نجد انه من العسير عليه أن يتغافل تلك المعطيات التاريخية حتى في سعيه نحو البحث عن مؤتمرات القانون او فكرة الانتظام وهو الامل الذي يتوق اليه علماء الاجتماع .

ولقد كانت محاولات التاثير والتاثر بين علم الاجتماع والتاريخ حافزا لدى بعض المؤرخين على الاستفادة من بعض النماذج السسيولوجية في تحليلهم مثل توينى (Tawney) ونامير (Namier) ، ثم تلك التاثيرات التي ظهرت بشكل او بآخر في محاولات البعض تبني الاتجاه الماركسي ، كما هو الحال بالنسبة لكريستوفر هيل (Christopher Hill) وهوبس باوم (E. J. Hobsbawm) وتومسون (E. P. Thompson) وفينسنت (J. R. Vincent) ، وبريجز (ASA. Briggs) ، وهي محاولات وان كانت غير مألوفة الا أنها حاولت تبسيط ذلك الاتجاه الهادف الى التقريب بين علم الاجتماع والتاريخ .

وكان لعلماء الاجتماع دورهم في هذا الشأن حيث نجد سمسلر (N.J. Smesler) وبانكس (O. Banks) وجوتسمان (W. L. Guttsman) ، وهم لفيف من العلماء قدموا اسهامات بالغة الاهمية في عملية تدوين التاريخ الانجليزي (Historiography)

ومن بين الاسهامات الهامة التي عنيت اساسا بدراسة العلاقة بين علم الاجتماع والتاريخ من خلال عدة دراسات هي في معظمها دراسات ميدانية ، تلك التي قدمتها جماعة كمبردج لتاريخ السكان والبناء الاجتماعي (Cambridge Group) ولعل من أهم دراساتها ، تلك الدراسة التي قدمها بيتر لاسليت (Peter Laslett) وموضوعها « العالم الذي فقدناه » ، ثم تلك الدراسة التي قدمها ريجلي (E. A. Wrighly) والمعنونة « مقدمة في علم السكان التاريخي الانجليزي » .

ويتميز هذان المؤلفان بانهما محاولة ناضجة وطموحة من حيث الموضوع والمنهج لتطبيق مناهج التحليل السكاني والسسيولوجي في تناول القضايا الخاصة بالتاريخ الانجليزي .

وفي المؤتمر العالمي الذي عقدته جماعة كمبردج عام ١٩٦٩ ، قدم لاسليت

دراسة عن النزعة الى العائلية والاسرة في الماضي ، وهي تعني في المحل الاول بالتنظيم الاجتماعي لوحدات العائلة في الماضي .

ولقد قام ثلاثة وعشرون باحثا باجراء عدة دراسات تاريخية مقارنة تعتمد على فرضية قدمها لاسليت (Laslett) مؤداها ان التنظيم الاسري كان دائما نووي الشكل .

ومن حصيلة هذا المؤتمر ايضا اربعة مقالات عن انجلترا وستة عن بعض البلاد الاخرى في اوروبا الغربية وثلاثة عن اليابان ومثيلها عن امريكا الشمالية ، وهي دراسات اعتمدت في اغلبها على تلك المقدمة التحليلية التي قدمها لاسليت في دراسته عن الاسرة والنزعة الى العائلية .

ومن انضج الدراسات التاريخية التي اعتمدت اساسا على المنهج السسيولوجي تلك الدراسة التي قدمها نيل (R. S. Neale) عن « الطبقة والايديولوجيا في القرن التاسع عشر » ، وهي دراسة تنهض اساسا للكشف عن الطبقة والوعي الطبقي في القرن التاسع عشر مستخدمة النموذج الخاص بالبناء الطبقي ، محاولة تفسير المشكلات الخاصة بعلاقات السلطة والتاريخ السياسي ، لا سيما في علاقة السلطة بالنزعة الراديكالية الفلسفية .

ولقد نهج نيل (Neale) في دراسته نهجا نقديا خاصة لهؤلاء المؤرخين الذين استسلموا للاطر التفسيرية الكامنة او المضمرة ، وخضعوا لكثير من المفهومات التي ما زالت تتسم بالغيبية ، وحثهم على ضرورة الاهتمام بالنماذج السسيولوجية والتفكير بشكل نقدي في معنى الطبقة وعليهم ان يتفهموا قيمة النماذج الموجهة (Heuristic Models) لفهم التغير الاجتماعي في الدراسات التاريخية .

يؤكد بومان (Bauman) في دراسة هامة في نطاق علم الاجتماع التاريخي وموضوعها ظهور حركات العمل الانجليزي على ضرورة الاهتمام بالنماذج السيولوجية في تناول المعطيات التاريخية .

وبعد .. لا شك ان عمليات التأثير والتأثر بين علم الاجتماع والتاريخ اصبحت امرا معترفا به عمليا لا سيما اذا اخذنا في اعتبارنا ان العلوم الاجتماعية اضحت متشابكة فعالم الاجتماع — مثلا — في تناوله لاية ظاهرة كائنة كانت لا يستطيع ان يستغني عن علم الاقتصاد او السياسية او التاريخ ، كذلك الامر بالنسبة لعالم الاقتصاد او المتخصص في السياسة او المؤرخ .

فالاتجاه القائل بالاعتماد المتبادل بين العلوم الاجتماعية (Interdisciplinary Approach) قد اصبح امرا مشروعا لا سيما منذ ان بدأت هذه العلوم تجاوزاتها عن الاتجاهات التقليدية في الدراسة والبحث .

الحواشي

* اعتمد الكاتب اساسا للكشف عن طبيعة العلاقة بين علم الاجتماع والتاريخ على المصدرين الاتيين : —

— Erikson, Kai, T. Sociology and The Historical Perspective, **The American Sociologist,** Vol. 5, Nov, 1970.

— Bulmer, Martin, Sociology and History : Some Recent Trends, Sociology : **The Journal of the British Sociological Association,** Vol. 8, No. 1, January, 1974.

● ●